الفكر التربوي لدى الشيعة الإمامية

أ.د.طه جابر العلواني

يتعلق الفكر التربويُّ-في نظرنا المتواضع-بتكوين عقليَّة ونفسيَّة إنسانيَّة، يُراد لها أن تؤدي دورًا محدَّدًا في الحياة، وفقًا لنموذجٍ لشخصيَّة إنسانيَّة ذات مواصفات خاصة، والقرآن الكريم رسم معالم الشخصيَّة المسلمة بشكل دقيق، فأوضح نشأة الإنسان وأسباب إيجاده وخلقه، والدور الَّذي أوكل إليه في هذه الحياة، والوسائل التي يمكن أن يتوصل بها لتحقيق هذا الدور والقيام به، فتصوَّر القرآن الكريم للإنسان حقيقةً ووجودًا ودورًا وطبيعةً وطاقاتٍ وقوى ووعي وشبكة علاقات متنوعة، كل ذلك نجده مبثوثًا في آيات الكتاب الكريم التي تناولت الإنسان، وهو جزء من «عالم الذرِّ» حيث أخذ الله-تبارك وتعالى-العهد عليه : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) (الأعراف:٧٢-٧٣) ثم نقله من «عالم الذر» إلى «عالم الوجود» والخلق الكامل : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً) (النساء :١) ثم أخذ بيده إلى عالم الاستخلاف : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة :٣٠) وبعد إيكال مهمة الاستخلاف إليه ائتمنه على الأمانة، أمانة حريَّة الاختيار والتصرف : (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا) (الأحزاب : ٧٢)، وبعد منحه ذلك الحق-حق الحريَّة-وضعه في دائرة الابتلاء والاختبار : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) (الملك : ٢) في المجالات السابقة ؛ مجال الوفاء بالعهد، وصيانة أمانة الحريَّة، والقيام بمهمة الاستخلاف، ثم تُطوى صفحة هذا الدور لينتقل الإنسان بالموت إلى مرحلة أخرى هِيَ مرحلة الجزاء، والحصول على الثواب أو ملاقاة العقاب : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (السجدة : ١١)، (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(الإسراء:١٣-١٤)، وفي إطار الجزاء تؤول البشريَّة إلى فريقين : فريق في الجنَّة وفريق في السعير، وكل مَا جاء في كتاب الله-تبارك وتعالى-وسنة وسيرة رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ-جعل محوره هذا الإنسان، ودوره، والأمانة التي اؤتمن عليها، ليتحقق بمقاصد ثلاثة حاكمة، هي : التوحيد والتزكية والعمران، ويفترض أن توجَّه جميع الجهود التربويَّة-في المحيط الإسلاميِّ-نحو إيجاد هذه الشخصيَّة، بعقليَّتها ونفسيَّتها، وسائر خصالها وصفاتها، وكان ذلك الهدف-هدف إيجاد الشخصيَّة المسلمة الكاملة-محور اهتمام الأمَّة بكل فرقها وطوائفها-بعد الفرقة-ومحور اهتمام الأمَّة بمجموعها قبل ذلك، وقد سدَّدت وقاربت ونجحت في أحيان كثيرة في إيجاد هذه الشخصيَّة، وأخفقت في بعض الأحيان، ولكن لم يغب عن العقل المسلم أن قطب الرحى هو : إيجاد تلك الشخصيَّة المسلمة المتوازنة، التي يمكن أن تكون عضوًا عاملا صالحًا في الأمَّة الشاهدة التي أراد الباري سبحانه وتعالى لها أن تقوم مقام النبوة بعد ختمها : (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة:١٤٣).

وبعد افتراق الأمَّة-نتيجة بروز تحديات كثيرة نجمت عن مجموعة كبيرة من التحديات الداخليَّة والخارجيَّة التي لم تستطع الأمَّة في تلك المرحلة المبكرة أن توجد القنوات المناسبة لاستيعابها، وتوجيه طاقات القوى المنضمَّة إلى الأمَّة والناشئة فيها نحو بناء ذلك النموذج المطلوب وتكوين الأمَّة الشاهدة القطب، التي تُغني عن تتابع النبوات بعد ختمها-اتجه الفكر الفرقي للفرق المختلفة نحو بناء شخصيَّة إنسان الفرقة، بعد أن كان الاتجاه العام يدور كلُّه حول إنتاج الفرد الذِي يكون عضوًا في أمَّة، لا مجرد عنصر في فرقة أو طائفة أو مذهب، بقطع النظر عن مبدأ الحق والباطل، أو الخطأ والصواب في موقف هذه الفرقة أو تلك، فبدأت تُنْحَت المكونات التربويَّة التي جاء الكتاب الكريم بها وبيَّنها، ونقَّدها وحقَّق تأويلها في الحياة سيدنا رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ-لصالح إنسان الفرقة والطائفة والمذهب، فنزل مستوى أبناء هذه الأمَّة-وفقًا لتلك المؤثرات-إلى مستوى إنتاج إنسان الفرقة أو الطائفة أو النحلة أو المذهب بدلا من إنسان الأمَّة الشاهدة القطب، وبدأ مفكِّرو تلك الفرق وقادتها ينحتون من الصفات المشتركة صفات خاصَّة لتتناسب مع إنسان الفرقة وإنسان الطائفة، كما حدث في عصرنا هذا-حينما تم تمزيق الأمَّة المسلمة وتقطيعها جغرافيًّا

إلى أقاليم وأقطار–أن بدأت هذه الأقاليم والأقطار تنفصل عن الكل الذِي كانت جزءًا منه، وتحاول إعادة تشكيل ذاتها وفقًا للمعطيات الجديدة، فأصبحت تذهب–على سبيل المثال– إلى التاريخ الإسلاميِّ المشترك العام لتقطع منه أجزاء تدَّعيها وتنسبها إلى أقطارها وأقاليمها، وتصنع أمجادًا مقتطعة من المجد الكلي للأمَّة لتنسبه إلى هذا الشعب أو تلك القبيلة.

والفكر التربويُّ–بعد الفرقة–أخذ يقتطع من المكونات المشتركة والعامَّة للشخصيَّة الإسلاميَّة مَا يمكن أن يوظِّفه في تكوين فرقة أو طائفة أو مذهب أو نحلة، تلتقي بالكلِّ، ولكنَّه اللقاء الباهت ؛ لإنَّ التركيز كلَّه قد انصرف إلى بناء الإنسان الطائفة والفرقة والنحلة والإقليم وما إلى ذلك، ويعدُّ الاتجاه المذهبيُّ الشيعيُّ، واتجاهات الخوارج والمرجئة والقدريَّة، من الاتجاهات الأولى التي برزت في المحيط الاجتماعيِّ الإسلاميِّ في وقت مبكر، وإذا كان الخوارج والمرجئة والقدرية قد قدَّموا أطروحات أوجدت بينهم وبين بقيَّة عناصر الأمَّة فواصل حادة منذ البداية، فإن التشيع لم يكن كذلك، حيث بدأ التشيع بداية هادئة تقوم على مجموعة من الأفكار التي لم يكن قبولها صعبًا على المسلم العاديِّ، حيث بدأت في بادئ الأمر بالانحياز إلى جانب الإمام عليٍّ–كرَّم الله وجهه–واعتباره أولى من عثمان–رضي الله عنه–بالخلافة، خاصَّة بعد أن مرَّت ست سنوات على خلافة عثمان، كانت تُعدُّ بمثابة استمرار لخلافة الشيخين أبي بكر وعمر–رضي الله عنهما–وتفضيل الإمام عليٍّ–بشبابه وشجاعته وفتوته–على شيخ مسنٍّ مثل عثمان، وإن كان صهرًا لرسول الله–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ–وله فضائل كثيرة، ولكنه لم ينشأ في بيت رسول الله–صلى الله عليه وآله وسلَّم– وتحت إشرافه، ولم تتكون عقليَّته ونفسيَّته في ذلك البيت الطاهر وبذلك الإشراف النبويِّ المباشر، في هذه الحدود كان الأمر مفهومًا ومقبولا لدى كثير من الصحابة–رضي الله عنهم– وكان البعض ينظر إلى أن الإمام علي–رضي الله عنه–كضحيَّة لتجاهل بعض إخوانه لفضله وقدره ومكانته، فالتعاطف معه على هذا المستوى، والانحياز إليه أو التشيع له–دون أيَّة إضافات أو رتوش–كان أمرًا يجد له من الصحابة أنصارًا، وقد زادت تلك المشاعر حدَّةً بعد بروز بعض المشكلات بعد السنوات الست من خلافة عثمان–رضي الله تعالى عنه–حيث أخذت عليه مجموعة من القضايا عُدَّ عثمان–رضي الله تعالى عنه–بها مخالفًا لما التزم به من

تَشَبُّثٍ بالكتاب الكريم والسنَّة وسيرة الشيخين–رضي الله تعالى عنهما–وقد أدى ذلك فيما بعد إلى قتله ودخول المسلمين دوامة الفتنة.

يمكن القول بأن هناك عنصرًا إضافيًّا قد أضيف للتشيع للإمام علي–رضي الله تعالى عنه–والانحياز إليه بعد السنوات الست الأولى من خلافة عثمان–رضي الله تعالى عنه–ذلك أن الجدال لم يَعُدْ يدور حول أولويَّة عليٍّ–رضي الله تعالى عنه–وأحقِّيَّته بالخلافة من عثمان–رضي الله تعالى عنه–بل امتدَّ البعض به إلى القول بأنَّ عليًّا كان أَولَى من أبي بكر وعمرَ–رضي الله تعالى عنهما–لكنّ الفرق بين أبي بكر وعمر وبين عثمان–رضي الله تعالى عنهم–في أواخر خلافته أن الشيخين–رضي الله تعالى عنهما–قد استأثرا على عليٍّ–رضي الله تعالى عنه–ولكنهما عَدَلَا حين حكما، خلافًا لما نسب إلى عثمان–رضي الله تعالى عنه–في تلك السنوات الأخيرة في خلافته، فلم يتميَّز التشيُّع في العقيدة ولا في الفقه ولا في أي مجال آخر عدا هذا المجال الذِي يُمثل موقفًا سياسيًّا، وفي الوقت نفسه تشكلت مدرسة زيد بن علي في المدينة المنورة لتستقطب عددًا لا بأس به فيما بعد من أبناء الصحابة–رضي الله عنهم–وهي مدرسة تتَّفق مع المدرسة الإماميَّة في الأصل، ألا وهو: إمامة عليٍّ–رضي الله تعالى عنه–والانحياز له والتشيُّع له، ولكنَّها تختلف فيمن يعقبه ويخلفه، وهذا أمر لم يتبلور إلا فيما بعد ؛ أي : بعد «عام الجماعة».

حينما حدثت الفتن وسالت الدماء واشتدَّ السجال بين الصحابة–رضي الله تعالى عنهم–ثم أبنائهم، وطُرحت «فكرة النصِّ» ليُقال أنَّ إمامة عليٍّ–رضي الله تعالى عنه–وخلافته لرسول الله–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ–منصوص عليها بنصوص كثيرة، فعليُّ–رضي الله تعالى عنه–من آل بيت رسول الله–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ–المشهود لهم بالطهارة والتزكية : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (الأحزاب:٣٣)، إضافة إلى ذلك فإن القرآن الكريم قد ذكر في قصة سيدنا إبراهيم أن الله–تبارك وتعالى–قد قال : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة : ١٢٤) والشرك ظلم عظيم، فمن لم يتلبس بشرك–لا في جاهليَّة ولا إسلام–يُقدَّم على مَنْ تلبَّس بالشرك والجاهليَّة ثم دخل الإسلام.

وهي مسألة تقوم على فذلكة لغويَّة بحثها الأصوليُّون في مسألة مَا إذا كان صدق المشتق يتوقف على بقاء مَا منه الاشتقاق في ذلك المشتق أو يفارقه، وهي مسألة خلافية بينهم فيها أقوال عديدة، يضاف إلى ذلك حديث الغدير : «مَنْ كنت مولاه فهذا علي مولاه»[1]، وحديث استخلافه على آل رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلَّم-في المدينة، وحين قال علي-رضي الله تعالى عنه-لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ : «يا رسول الله أتخلِّفني مع النساء والصبيان ؟ فقال له : ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟»[2]، كل هذه الأدلة وغيرها تحولت إلى أدلة ساندة لذلك التشيع للإمام عليٍّ-رضي الله تعالى عنه-الَّذِي بدا في شكل موقف ورأي سياسيٍّ ليبلغ مستوى موقف قائم على دليل، يساعد على إدراجه لدى البعض في مجالات الاعتقاد ومجالات الفروع الفقهيَّة.

وقد زاد الأمر بعد ذلك حين تنازل الْحَسَن-الَّذِي يُفتَرض أن يكون الإمام الثاني بعد عليٍّ رضي الله تعالى عنه-تنازل لمعاوية حَقْنًا لدماء الأمَّة ورغبة في جمع كلمتها، وتحقيقًا لنبوءة جدِّه-صلى الله عليه وآله وسلَّم-الَّذِي روي عنه أنَّه قال: «إن ابني هذا سيد يُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من هذه الأمة»[3]. لكن الإمام الْحَسَن-رضي الله عنه- لم يتنازل لمعاوية جبنًا أو تنازلا غير مشروط، بل تنازل له على أن يُعيد الأمر بعد وفاته إلى الأمَّة لتختار لها إمامًا من بين أتقى وأصلح أبنائها، لا لكي يُقلدها ولده يزيد من بعده ويحوِّلها إلى كسرويَّة وِرَاثيَّة بقطع النظر عن المبرِّرات والأسباب، ولكن حين حدث ذلك، ونقض معاوية مَا عاهد الْحَسَن عليه من إعادة الأمر للأمَّة، تغيَّر الأمر وصار التشيع بمثابة حزب سياسيٍّ كبير، له أنصاره ومؤيدوه وله أفكاره وتوجهاته، وبدأ حَمَلَتُه ومفكِّروه يضعون قواعد وأُسسًا لهذا التوجه جعله أشبه مَا يكون بحزب سياسيٍّ معارض، يضم أكثر الجهات المعارضة لبني أميَّة واستئثارهم بالسلطة، وتبلور في مدرستين : مدرسة زيد بن علي في المدينة المنورة، ومدرسة الآخرين من آل عليٍّ-رضي الله تعالى عنه-الذين صار مقدَّمهم وحامل رايتهم شهيد كربلاء الإمام الحسين رضي الله عنه.

---

[1]- شهدوا به لعلي لما نوزع أيام خلافته وممن صرح بتواتره المناوي في التيسير نقلا عن السيوطي وشارح المواهب اللدنية وفي الصفوة للمناوي قال الحافظ ابن حجر حديث «من كنت مولاه فعلي مولاه» خرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جدا وقد استوعبها ابن عقدة في مؤلف مفرد وأكثر أسانيدها صحيح أو حسن. انظر : نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني، طبعة دار الكتب السلفية، ص.١٩٥

[2]- البخاري. -ج.١٤، ص.٣٥٢.

[3]- ورد عن أبي بكرة وجابر وأبي سعيد وغيرهم، وقال الترمذي في حديث أبي بكرة حسن صحيح، راجع النظم المتناثر. -ص. ١٩٧.

هنا يمكن القول بأنَّ هناك فكرًا تربويًّا شيعيًا قد بدأ يتخلَّق ويتكون، مثلما بدأت تتبلور أفكار شيعية في مجال الكلام، والرواية، والتفسير والتأويل، والحديث، والفكر السياسيِّ، وما إلى ذلك.

وحينما نريد تصنيف هذا الفكر التربويَّ الَّذِي بدأ يتخلَّق في المحيط الشيعيِّ نستطيع القول بأنه فكر يستهدف تربية الدعاة والعناصر والأعضاء التي يُراد تشكيلها، لتحمل تلك الأفكار التي تطورت-عبر تلك العقود-من فكرة بسيطة لا تتجاوز تفضيل علي-رضي الله تعالى عنه-على عثمان-رضي الله تعالى عنه-إلى اعتبار علي-رضي الله تعالى عنه-أولى من عثمان-رضي الله تعالى عنه-والشيخين-رضي الله تعالى عنهما-إلى اعتبار أن إمامته منصوص عليها، وأنَّ كل من تولَّى الخلافة قبله غاصِب عاصٍ بذلك الغصب، وأن الإمامة كان ينبغي أن تنحصر به وببنيه، وحينما تنازل الْحَسَن-رضي الله تعالى عنه-استبعِدَ الحسنُ وبنوه من أن يكون لهم شيء من الحق في الإمامة، لتنحصر بعد ذلك في عشرة من الأئمة بعد علي والحسين-رضي الله تعالى عنهما-كلهم من ذرية الحسين، وينتهون بالمهدي الغائب المنتظر، وقد صار مفكِّرو الحزب الجديد يمدُّونه بالأفكار والنظريَّات التي تسمح له بالامتداد والانتشار والمحافظة على الذات باعتباره حزبًا معارضًا، وإعادة الأمر إلى نصابه، فبعد الأقوال المشار إليها جاءت فكرة القول بامتداد عصر النص إلى الغيبة الكبرى (عام ٣١٨هـ)، فلم يُعتبر عصر النص قد انتهى بوفاة رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلَّم-بل امتدَّ إلى الغيبة الكبرى لتصحَّ جميع أقوال الأئمة سننًا لا يجوز الخروج عليها ولا إهمالها، وبرزت آراء في رجال الحديث وفي الرواة-في المذهب وفي مخالفيه-فجُرِّح الصحابة إلا ثمانية لأسباب كثيرة ذكرت في هذا المجال، واقتُصِر على روايات أهل البيت وأنصارهم وشيعتهم، وأقوالهم في الحديث والتفسير وما إلى ذلك، وهنا أصبح هذا الحزب المعارض حزبًا له فلسفته الكاملة وله أصوله وفقهه وكلامه وحديثه وتفسيره، يتفق مع بقيَّة المذاهب ويختلف، لكنه متميز في سائر الأحوال، هنا يمكننا القول أنَّ منابع تربية العقل الشيعيِّ قد برزت-بل تكاملت-وأصبح في الإمكان أن تبني نظريَّة تربويَّة متميزة عن تلك النظريَّة الكليَّة، تأخذ منها أسسها وجذورها، لكنها تنفصل وتتمايز في تلك الأمور الخاصَّة التي يقوم التشيع عليها، فهل نستطيع أن نستنبط-من ذلك الَّذِي عرضناه وما لم نعرضه-أن هناك نظريّةً تربويَّة شيعيَّة؟

نستطيع القول : نعم؛ إن هناك معالم نظريَّة تربويَّة شيعيَّة تستهدف إيجاد إنسان شيعيٍّ في عقليَّته وفي نفسيَّته، يتَّصل بالكل الإسلاميِّ وينفصل عنه، فهو من زاوية يضع في نظريَّته التربويَّة مجموعة من الأسس والقواعد والمشتركات الإسلاميَّة، ولكنه يركِّز على خصوصياته التي يتميز بها عن ذلك الكل الَّذِي بدأ يطلق عليه «أبناء العامَّة»، وذلك يعني أنَّه ينتمي إلى الخاصَّة والإيحاءات المنحازة في كل من التعبيرين لا تخفى.

والأحزاب المعارضة–حينما تكون في محيط واسع تخشى فيه على خصوصياتها من الاندثار–تعمل على إحاطة تلك الخصوصيَّات بأسوار حماية تضمن بقاءها واستمرارها، والحيلولة بينها وبين الذوبان، ففي المحيط السياسيِّ–قبل الغيبة–كانت الطائفة تتميز عن غيرها بالدعوة السرية لآل البيت خوفًا من اضطهاد الحكَّام.

وبعد الغيبة صار البعد السياسيُّ يقوم على التبشير بالحجة القائم–من آل محمَّد صلى الله عليه وآله وسلَّم–المنتظر الَّذِي سوف يملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئَت جورًا، ولحماية قيادات الحزب وتشكيلاته وتنظيماته يُقرَّرُ مبدأ «التقيَّة» لحماية الأعضاء والمنتمين للمذهب «الحزب» من بطش السلطان. وعلى مستوى علم الكلام تطرح الإمامة بأنها : منصب دينيٌّ كالنبوة، وأنَّ الناس أقلُّ من أن ينتخبوا الإمام، بل يختاره الله–تبارك وتعالى–لهم كما يختار الأنبياء ويصطفيهم، وأن إمامة السلاطين والملوك والخلفاء كلُّها باطلة، وأنَّ كل مَا يأخذونه من الرعيَّة، إنَّما هِيَ حقوق للإمام تستلب منه، لا يجوز لأحد يستطيع عدم تمكينهم من ذلك المال أن يمكِّنهم منه، وفي أركان الدين تصبح الأركان ستَّة، سادسها : الخمس، وفي النكاح يبقي على متعة النساء باعتبارها أمرًا مشروعًا عند بعض علماء المذهب أو مستحبًا عند البعض الآخر، وكوَّن المجتهدون فقهًا وأصولا واسعين في سائر مجالات الحياة، فإذا أردت أن تربِّي إنسانًا شيعيًا–في عقليَّته ونفسيَّته–فلابد لك من ملاحظة ذلك.

هنا نودُّ الوقوف لنلتفت قليلا إلى الوراء، حين دعا بعض خلفاء الأمويِّين إلى بدعةٍ لم يسبقهم أحد إليها، وهي بدعة سبِّ الإمام علي–رضي الله تعالى عنه–على المنابر، لتبرز نحلة عُرفت «بالنواصب» ؛ أي: أولئك الذين ناصبوا عليًّا–رضي الله تعالى عنه–وآل البيت العداء، وهؤلاء «النواصب» كانوا بعض الغلاة من أجناد الأمويِّين الذين أبطل بدعتهم الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، الَّذِي نهى عن سبِّ عليٍّ–رضي الله تعالى عنه–على

المنابر وسواها، وأبطل تلك البدعة الشائنة، لكن ذلك لا يعني أن اتجاهات هؤلاء الناصبيين قد اختفت ؛ فقد بقي بعض هؤلاء يُردِّد بأنَّ عليًّا-رضي الله تعالى عنه- لم يكن يستحق أن يكون خليفةً، لا في الأول ولا في الآخر، وأنه لم يكن يملك مؤهلات السياسيِّ، ويبدو أن هؤلاء نشأوا في أحضان بعض أجناد الأمويِّين الذين شارك آباؤهم في مقاتلة الإمام علي-رضي الله تعالى عنه-فحاولوا إنكار فضائله كلِّها، هنا نجد أن بعض العلماء المنتمين للمذهب بدأت تظهر في كتاباتهم وعلى ألسنتهم عبارات اللعن، بدأت بمعاوية ويزيد، ثم ارتقت إلى أم المؤمنين عائشة وعثمان والشيخين-رضي الله عنهم-ولكن كانت ظواهر فرديَّة غير عامَّة، ولم تبرز الدعوة إليها بشكل حاد إلا على مستوى إنكار عدالة الصحابة-على سبيل الإجمال-ورفض أحاديثهم، لكننا سوف نجد بعد قرون تغيرًا في الأمر.

فعندما قامت الدولة الفاطميَّة-في مصر وبعض الدول الشيعية في الغرب الإسلاميِّ-كرَّست السياسة الاتجاهات الطائفية بإبراز إضافات أدت بالفاطميِّين إلى الانتهاء بالقول بالحلول، حلول روح الرسول-صلى الله عليه وآله وسلَّم-في الأئمة، ثمَّ حلول أرواح الأئمة في أئمة الفاطميِّين، وتجاوزَ الحاكمُ بأمر الله ذلك تجاوزًا لم يرضه المسلمون كافة، ومن بينهم أئمة المذهب خاصَّة من الشيعة الإماميَّة، لقد بلغ الأمر بالحاكم بأمر الله الفاطميِّ-ولم يكن سوى صبيٍّ أرعن-حدَّ الادعاء أن روح الله قد حلَّت فيه، فادَّعى الألوهيَّة على الناس، وأعطى لنفسه حقَّ التحليل والتحريم، وابتُلِيَ المصريون به، ورُويت العجائب في عهده، وهو الَّذِي قال له شاعره :

مَا شِئْتَ لا مَا شَاءَتْ الأَقْدَارُ *** فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الوَاحِدُ القَهَّارُ

وقد عزل الفاطميون مصر-فترة حكمهم-عن سائر أنحاء العالم الإسلاميِّ، وعن الخلافة في بغداد، وأسَّسوا أضرحةً ومزارات لآل البيت، لكي لا يذهب المصريُّون إلى أيِّ بلد خارج مصر لزيارة آل البيت وأضرحتهم في العراق وغيره، مع أنَّ من الثابت تاريخيًّا أنّه لَمَ يدخل أحد من آل البيت القطر المصري سوى نفيسة بنت الحسن.

وأما شيعة المغرب فلم يكونوا بعيدين عن جمهرة المسلمين الآخرين؛ لإنَّ التشيُّع الَّذِي كان سائدًا بينهم-وفي أيامهم-هُوَ التشيع العلوي الَّذِي لم يكن فيه سبٌّ ولا لعن ولا شتم

ولا براءة من الصحابة-رضي الله عنهم-وظلَّ الحال كذلك حتى بدأت تتكون فرق داخليَّة في المذهب مثل : الإسماعيلية وسواها.

قيام الدولة الصفويَّة :

من المعروف أنَّ إيران كانت سُنيَّة بشكل تام، لا يوجد فيها إلا أعداد لا تذكر من الشيعة العلويين، وحدثت مفارقة عجيبة حينما طمعت الأسرة الصفويَّة-بقيادة عميدها آنذاك عباس الصفويِّ-بالاستيلاء على السلطة فيها، واتصلت حبال عباس بطريقة صوفيَّة كان لها أتباع كثيرون ولها نفوذ وامتداد في إيران، فسرعان مَا اتخذ منها عباس الصفويِّ قاعدة شعبيَّة له، واستولى على حكم إيران، وضمَّ حوله بعض علماء الشيعة من مستويات متواضعة كمستويات قرَّاء العزاء وأمثالهم من الذين أطلق عليهم فيما بعد «وعَّاظ القصر»، وشعر عباس-خاصَّة والدولة العثمانيَّة لم تكن مستريحة لاستيلاء الصفويِّين على إيران-أنَّه في حاجة إلى بناء عصبيَّة متينة قوية، من شأنها أن تعزِّز سلطانه وتقوِّي ملكه؛ فبدأ يتبنَّى اتجاهات تشيُّع متطرفة شديدة، ويشجِّع على بعث مجموعة أفكار من شأنها أن تباعد بين أهل إيران وبقية المسلمين، فكانت النتيجة بروز نوع مما عرف«بالتشيُّع الصفويِّ»، و«التشيُّع الصفويِّ» تشيُّع مغاير تمامًا للتشيع العلويِّ، ففيه كثير من الإضافات التي لم يكن أحد من المؤمنين بالتشيُّع العلويِّ يتقبَّلها أو يتبناها، وبدأت صفحة جديدة قامت على نوع من السجال والصراع بين الدولتين-العثمانيَّة والصفويَّة-وجعلت كلا الدولتين تتجهان اتجاهات متطرفة ضدَّ الدولة الأخرى وما تقوم عليه، فالعثمانيَّة قد كرَّست المذهب الحنفيَّ وأطلقت لقب «الإمام الأعظم» على الإمام أبي حنيفة، وهمَّشت المذاهب السنيَّة الأخرى-إضافة إلى المذهب الشيعيِّ-وأخذت تحطّ من المذهب الشيعيِّ والشيعة بمختلف الوسائل، وتنبزهم بمختلف الألقاب، وعندما أخذ الصراع بين الدولتين شكله العسكري تكرَّست ثقافة العداء والكراهية بينهما، ووُجدت ثقافة الاختلاف والصراع، وبدأت تتأصَّل هذه الثقافة وتُستحيا جميعُ المقولات التي تحمل اتجاهات الكراهية والاختلاف، فدخلت كثير من مقولات الغلاة من الطرفين إلى الثقافة الشعبيَّة، لتكون جزءًا من مسوغات الاقتتال والاحتراب، وقد جرى ذلك في وقت كانت أوربا قد بدأت سيرها في اتجاهات النهضة، واكتشاف طرق الاتصال وبناء قوة جديدة لتفكيك العالم الإسلاميِّ، والتخلص مما كان يعرف «بالمسألة الشرقية».

لا شك أن ذلك الصراع الَّذِي استمر بين الدولتين-العثمانيَّة والصفويَّة-إلى مَا يقرب من ثلاثة قرون ونصف، وكانت الحرب بينهما سجال، وكان العراق بالذات من أهم ميادين صراع الدولتين، فإذا قويت الدولة العثمانيَّة فذلك يعني أن العراق صار تحت سلطانها، وإذا ضعفت وخسرت أمام الصفويِّين معركتها صار العراق تحت سلطان الدولة الصفويَّة.

أهم معالم الفكر التربويِّ السنيِّ والشيعيِّ الناجم عن هذه الصراعات :

لكي نبيَّن أبرز معالم التكوين العقليِّ والنفسيِّ، ونكشف عن القواعد التربويَّة التي شاركت في تكوين الثقافة الشيعيَّة والثقافة السنيَّة، نحتاج إلى العودة قليلا إلى الوراء، وبالذات إلى نقطة مبايعة عبدالرحمن بن عوف لعثمان-رضي الله تعالى عنهما-بعد أن عرض الأمر على عليٍّ-رضي الله تعالى عنه-وفيه اشتراط أن يتمسَّك الخليفة المبايَع من عبدالرحمن بن عوف-إضافة إلى الكتاب والسنة النبويَّة-أن يتمسك بسنَّة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، هنا رفض عليٌّ-رضي الله تعالى عنه-أن يبايع على الالتزام بسيرة الشيخين-رضي الله تعالى عنهما-وحينما نحاول تحليل هذا الموقف نجد فيه بذرة الرفض في العقل الشيعيِّ للاتِّباع والاستمرار، وفي الوقت نفسه هناك إيحاء خاص في موقف عبدالرحمن بن عوف-رضي الله تعالى عنه-يشير إلى ضرورة اتِّباع من سلف، والاستنان بسنَّة مَنْ سبق، فهل كان عبدالرحمن-رضي الله تعالى عنه-يتوقَّع من عليٍّ-رضي الله تعالى عنه-خروجًا على سنن الشيخين-رضي الله تعالى عنهما-بحيث يضع ذاك الالتزام شرطًا لمبايعته ؟ وهل أراد عليٌّ-رضي الله تعالى عنه-بموقفه أن يبرز معارضة كانت كامنةً ويعود إلى الأصلين : الكتاب الكريم، وبيانه العمليّ والتطبيقي في سنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم ؟ كل ذلك محتمل، لكن مَا ترتَّب عليه أن عبدالرحمن-رضي الله تعالى عنه-قد عدل عنه إلى عثمان-رضي الله تعالى عنه-الَّذِي وافق بالالتزام بهذا الشرط. في سائر الأحوال نجد أن هذا الموقف قد رسم للأمَّة خطين مختلفين : خط يقوم على الاتِّباع والالتزام، وهو مَا قد يكون أوحى بفكرة «أهل السنَّة والجماعة»، وإن كان المصطلح بحدِّ ذاته لم يُبرَز بشكل كاف ويتحول إلى عنوان لفئة إلا في عهد المتوكل العباسيِّ (عام ٣١٨ هـ)، في مقابل المعتزلة ومذهب الاعتزال، والمصطلح فيه تحيُّز وفيه إيحاءات بأنَّ حملته هم أهل السنَّة، وذلك قد ينبِّه ويستدعي مفهوم المخالفة، بأن يكون مخالفيهم من أهل البدعة، وإضافة لفظ الجماعة فيه إيحاءٌ بأنَّ هؤلاء هم

أهل الجماعة ومخالفوهم هم أهل الفرقة. أمَّا الخط الثاني فهو خط يوحي بفكرة الرفض وقول لا، تنبيهًا إلى رفض الالتزام بسنن من سبق، والاقتصار على الالتزام بالأصول المأمور باتِّباعها والالتزام بها، فهل مصطلح الرفض الَّذِي وُسِم الشيعةُ به فيما بعد كان له علاقة بهذا الرفض الَّذِي بدأه الإمام، أو أنَّه بُني على تصورات وإضافات لاحقة ؟

من حيث التربية والتكوين العقليِّ والنفسيِّ والثقافيِّ يمكن القول بأنَّ خط اتِّباع مَنْ سلف سيطبع العقل السنيَّ والنفسيَّة السنيَّة والثقافة السنيَّة بطابعه ويَسِمُها بسمته، وإن كان أهل السنَّة كافة يقولون بالاجتهاد وحجِّيَّة الرأي إذا بُني على أسس سليمة، والالتزام بالجماعة هُوَ التزام بما عليه الأكثرون، والالتزام بما لا يفرِّق الكلمة، حتى لو وجدت مسوغات الإنكار. أمَّا قاعدة تكوين الشيعيِّ عقليًّا ونفسيًّا وثقافيًّا فهي قاعدة الرفض، وإن لم يكن رفضًا مطلقًا، بل هُوَ رفض مقيَّد كما هُوَ معلوم، وهذان الاتجاهان المبكران سوف يبقيان في مجال التأثير في تكوين كلٍّ من الفريقين إلى أيامنا هذه.

من هنا نجد مصطلح «أهل السنَّة والجماعة» قد أخذ أبعادًا مختلفة في ثقافتنا وتكويننا، حيث أثَّر في مجالات كلاميَّة وفقهيَّة عديدة، فتقبل الفكر السنيُّ فيما تقبل إمامة المتغلب، وغضَّ الطرف عن انحرافات الخلفاء والسلاطين، إلا أن يرى كفرًا بواحًا له عليه من الله-تبارك وتعالى-سلطان، وشدَّد علم الكلام السنِّي تشديدًا كبيرًا في منع الخروج على الإمام لمجرَّد ارتكابه المعصية أو الانحراف، وجعل الخارج على الإمام المستقر في سلطانه، الَّذِي اجتمعت الكلمة عليه بقطع النظر عن الشكل الَّذِي اجتمعت الكلمة عليه، حتى لو شاب ذلك الشكل شيء من إكراه، أو أخذ عهود وأيمان ومواثيق وما شابه، في حين اتَّسم الفكر الشيعيُّ بجعل قضيَّة الإمامة قضيَّة تدخل في دائرة الإلهيَّات، وعدَّها منصبًا دينيًّا كالنبوة، لا يخضع لاختيار الجماهير أو انتخابها-كما أشرنا-ولذلك فإمام الوقت عنده-سواء أكان ظاهرًا أو خفيًّا-هُوَ الَّذِي يعطيه بيعته ويعترف بإمامته، حتى بلغ الغيبة الكبرى ليكون في حالة انتظار للإمام المنتظر، ولذلك فهو لا يعطي صفقة يده ولا ثمرة فؤاده لأي حاكم من هؤلاء، فلم يعترف لا بالأمويِّين ولا بالعباسيِّين ولا بالسلاجقة ولا بالغزنويِّين ولا بالعثمانيِّين ولا بالإيلخانيِّين، ولا سواهم، بل بقي يعمل في السرِّ أحيانًا وفي العلن أحيانًا أخرى، في

إطار اتجاه معارض له عقليَّته الرافضة ونفسيَّته المعارضة وثقافته التي هِيَ ثقافة معارضة دائمة مستمرة.

هنا نجد السنيَّة –عالِمًا أو متعلِّمًا– لا يرى بأسًا بالارتباط بالدول والحكومات والخلفاء والسلاطين، يبنون له مدارسه ويوقفون عليه الأوقاف، ويجرون عليه الجرايات وهو مغالٍ في الغالب، وإذا عارض فإنما يعارض بصفة الناصح المتَّصل بالخليفة أو السلطان، المبايع له الراضي به، والذي يحرص على إعانته في تعديل مساره وتصحيح سياساته بالحكمة والموعظة الحسنة والنصيحة المباشرة وغير المباشرة، ولكنه في سائر الأحوال يرفض الانضمام إلى خصومه أو الثائرين عليه إلا في حالات نادرة، ويمكن أن نضع لهذه العقليَّة والنفسيَّة والثقافة عنوان «عقليَّة ونفسيَّة وثقافة الموالاة»، أمَّا العالم الشيعيُّ فقد قرَّر الانحياز إلى الجماهير وبناء سياساته الماليَّة على الموارد التي تأتي منها، فكرَّس مشروعيَّة «الخمس»، وأدخل في معتقدات العامَّة الخمس بوصفه الركن السادس من أركان الإسلام، وهذا وإن بدا للعالم الشيعيِّ أنّه يحرره من الولاء للسلطان لكنه لا يحرره من الولاء للعامَّة، ولذلك فإنه يحرص على الدوام على بقاء الجسور ممتدَّة بينه وبينها، والبعد عن كل مَا ينفرها منه أو يبعدها عنه، وقد ولَّد نتيجة ذلك ثقافة تجعل هذا العاميَّ إلى جانبه دائمًا، يمدُّه بالولاء والتأييد والسمعة والحماية عند الحاجة إضافة إلى المال، وقد أتقن العالم الشيعيُّ –في تكوينه وتربيته– صياغة الخطاب الجماهيري، بحيث لم يعد الأمر قاصرًا عنده على استقطاب المتدينيِّن الملتزمين بالتشيع لعليٍّ –رضي الله تعالى عنه– وآل البيت –رضي الله تعالى عنهم– بل تجاوز ذلك إلى جميع الفئات المعارضة والرافضة للسلطان والمتمردة على سياساته، بحيث أمكن للشيعة أن يكوِّنوا قيادة جبهة رفض، وفي الحالات النادرة التي كانت القيادات الشيعيَّة لا تستطيع أن تستقطب الجبهات الرافضة أو الجهات الرافضة، تقوم تلك الجهات باستغلال الرفض والغضب الَّذِي يهيء التشيعُ أجواءه، وتميل به ناحية خاصة، كما حدث في «الثورة الحمراء» ثورة القرامطة والزنج، الذين استطاعوا أن يوظِّفوا الرفض ليحولوه إلى طاقة قادها «الثائر الأحمر» بعد ذلك وفجَّرها حمدان قرمط، والتي تُعد الثورة الشيوعية الأولى في العالم، كما أن الحَسَن الصباح –زعيم «الحشاشين»– استطاع أن يوظِّف ذلك الرفض والغضب الجماهيري ويحوله إلى طاقة ثورية تمثلت بما عرف «بثورة الحشاشين» أو الثورة الاشتراكية إن

صحَّ التعبير، لكن الثقافة الشيعيَّة بقيت هِيَ المهيمنة والمسيطرة على جبهة الرفض والتمرد والمعارضة بأشكالها المختلفة في الإسلام.

ولقد حاول بعض الدعاة الشيعة توظيف حركة الزهد في مرحلة من المراحل، ولكنهم لم يستطيعوا الصبر على الزهد، إذ كانت اتجاهات الزهد تنزع نحو العزلة، في حين اتجاهات التشيع تتجه نحو الامتزاج بالجمهور واستقطابه وتحويل مساره، كما حاول التشيع في مراحل أخرى أن يستقطب الطرق والحركات الصوفيَّة، فلم يصبروا عليها ولكنهم بنوا اتجاهًا عرفانيًا للمذهب، يحول بين الشيعة واتجاهات التصوف، ويجعلهم يكتفون ذاتيًّا بالعرفان الشيعيِّ القادر على إشباع رغباتهم وتوجهاتهم الروحيَّة وأشواقهم، دون حاجة إلى الانخراط في الطرق الصوفيَّة التي كانت في جملتها تصنَّف في المحيط السنيِّ.

فثقافة المعارضة والحزب المعارض الَّذِي يعمل في ظل نظم بوليسيَّة قاسية لم تكن قادرة على تحمل المخالف أيًّا كان، ولا السماح له بممارسة دعوته وحريته بأي شكل من الأشكال، وهي في الوقت نفسه تجد سندًا شرعيًّا-ممن يحيط بها من علماء السلطة-يمكن أن يقدم لها الفتاوى بضرورة إراقة دم المخالف أو حبسه مدى الحياة، أو معاملته باعتباره مرتدًّا أو كافرًا، والدليل على ذلك أنَّه قد أساء إلى أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلَّم- أو غيَّر أو حرَّف في الدين، أو دعا للخروج على الإمام الحق، أو مَا شابه ذلك.

وفي الفترات القليلة التي حكم فيها الشيعة-سواء فترة الفاطميِّين في مصر أو بعض الفترات في المغرب أو بروزهم في زمن البويهيين-كانت تبرز إشكالية كبيرة تؤدي أحيانًا إلى وضع شعبيَّتهم وارتباط الجماهير بهم موضع المساءلة، وهي إشكالية مألوفة، قد تعتري أيَّ تيار معارض ذي أيديولوجية محدَّدة حينما يتحول إلى نظام، فالنظام أو الحكم عمل يوميٌّ سيَّار يقتضي قواعد وضوابط ونُظمًا وقوانين، في حين أن أحزاب وحركات المعارضة لديها هامش واسع من الحريَّة، تستطيع السباحة فيه والإبقاء على الجماهير بجانبها بوعود يغلب أن تعجز عن تنفيذها حينما تكون سلطة، أو تنصرف عن الرغبة بتنفيذها لمخالفتها متطلبات السلطان أيضًا، من هنا نستطيع رصد القواعد الأساسيَّة التي يقوم عليها التشيُّع، والتي يمكن أن تقرأ في إطار تشيع علويٍّ، كما يمكن أن تقرأ في إطار تشيُّع صفويٍّ، وهي:

(١) المرجعيَّة : للإمام إن كان حاضرًا أو غائبًا.

(٢) التقيَّة : لتجنب المصادمات الدائمة بالسلطة المعادية للمذهب، وللتمكن من الاستمرار في العمل السريِّ، ولذلك فالتقيَّة أخذت أحكامًا تكليفيَّة مختلفة، ففي بعض المواقف ينصُّون على وجوبها، أو ندبها، أو ضرورتها، أو إباحتها، ولم يحدث تغيير يذكر في أحكام التقيَّة إلا بناءً على اجتهاد الخمينيِّ ومن معه، حينما خصَّصوا عمليَّة اللجوء إلى التقيَّة بأن لا تنتهك أمورُ العقيدة، وهم في هذا اقتربوا من السنة الذين يقولون بعدم الخروج على السلطان مَا لم يقع بكفر بواح.

(٣) الخمس : لتأمين الموارد المالية.

(٤) العزاء الحسيني ومجالسه ومناسباته بحيث تكونت ثقافة واسعة ترتبط بتواريخ ولادات الأئمة ووفياتهم، والأحداث الكبرى في حياتهم، كان استثمارها يجري باستمرار لتشكيل ثقافة الرفض، والتنديد بالحكومات والخصوم، والإيحاء بكل الوسائل إلى الجمهور بأن الحكومات القائمة أيًّا كانت غير شرعيَّة، واستثمار الحديث عن مناقب الأئمة وفضائلهم لكشف خصومهم، والتنديد بالخصوم وبيان امتيازهم على الحاكمين في مختلف الظروف، والإيحاء الدائم المستمر بشرعيَّة المعارضة وعدم شرعيَّة الموالاة، ولم يكن الربط في هذه المجالس صعبًا بين أهل السنَّة والجماعة وبين الحاكمين، فإنَّ قرَّاء العزاء والقصاصين والوعاظ الذين يقودون هذا النوع من المجالس كانوا يتقنون التلميحات والإشارات التي تبيِّن أن هؤلاء الظلمة المنحرفين المستبدين لولا وجود قاعدة عريضة تسندهم لما أمكن لهم البقاء على كراسيهم لأيَّة فترة مهما كانت محدودة، ولا يخفى مَا في ذلك من إيغار الصدور على السنَّة الذين قد يُستَدرَجون من الحكام لمزيد من الارتباط بهم، وتشكيل نوع من الحماية لكراسيهم مقابل جبهة المعارضة، ولعلَّ مَا حدث في العراق في عهد صدام يُعطي نموذجًا واضحًا لمثل ذلك.

(٥) التقليد : وقد حصر التقليد بالمجتهد الحيِّ وبشروط معيَّنة، فتقليد الأموات في المذهب الشيعيِّ غير وارد، فلا يقلِّد المجتهد الميت، وبما أن هذه القاعدة كان يمكن أن تهدم قاعدة مرجعيَّة الإمامة، فأوجدت لها صيغة توجد نوعًا من التوازن بين الإيمان بمرجعيَّة الأئمة– وهم أموات–وعدم تقليد المجتهد الميت، فقالوا بأن إمامة الأئمة ثابتة بالنص، واتخاذهم مرجعيَّة لا يُعدُّ تقليدًا، أمَّا التقليد فيتعلق بفروع المذهب، ولذلك فإننا نقلد الحيَّ لإنه الأقدر

على معرفة مَا نستفتيه فيه، ومعرفة مشكلاتنا على حقيقتها، وتقديم الجواب الشافي لنا لفهمها.

(٦) عاشوراء : فإذا لم يتمكن الشيعيُّ من تجديد معلوماته وثقافته المعارضة في المناسبات المختلفة–وهي عديدة حيث لا يكاد يخلو أسبوع واحد من ذكرى ولادة إمام أو وفاته–فإن عاشوراء موسم سنويٌّ ممتد يمكن أن يجدِّد الشيعيُّ فيه فكره وثقافته وارتباطه بالمذهب، فهو دورة سنويَّة متجددة تكرِّس تلك الأصول التي ذكرناها، وفي الوقت نفسه تنبِّه إلى مَا يقابلها، فثقافة المعارضة تتجدد فيها، والتنديد بالمخالفين يتجدد ... وهكذا.

وأما الجانب السنيُّ فهو يحمل نوعًا من إحساس باستعلاء غير حقيقي قائم على الانتماء إلى محيط الأغلبيَّة وثقافتها، وعناصر القوة فيها، إضافة إلى الإحساس بأن السلطة–إن لم تكن في مستوى دعم هذه الأكثريَّة–فإنها لا تكون في مستوى معارضتها أو تحجيمها، وتلك المشاعر لا تستطيع أن تمنحها شيئًا من الفاعليَّة، بل تكاد مواقفها أن تنحصر في ردود الفعل، فتجد الفكر السنيَّ والفقه السنيَّ والثقافة السنيَّة كثيرًا مَا تقلِّل من أهميَّة الجانب المعارض، ولم تجر عبر التاريخ محاولات جادة لرأب الصدع، والدخول في حوارات من شأنها أن تعيد للأمَّة وحدتها، فثقافة الحوار في الأصل مغيَّبة لإنَّ منطلقاتها على الدوام تنبثق من رغبة كل طرف في ليِّ ذراع الطرف الثاني، وحمله على التسليم لمحاوره بكل شيء والانضمام إليه، وقد حفظ التاريخ الحديث لقاء حوار بين علماء السنة والشيعة في النجف في عهد نادر شاه الَّذِي استولى على العراق ١٧٣٦م وقرَّر دعوة علماء الفريقين لمؤتمر لمناقشة الأمور الخلافيَّة بين الفريقين، وقد نُشرت وقائع المؤتمر في كتاب تحت عنوان «مؤتمر النجف» عدَّه الناشرون حينها بمثابة المحضر الرسمي الَّذِي أعدَّه الشيخ عبدالله السويدي بتكليف من نادر شاه لإطلاعه عليه، وليكون ملزمًا للطرفين بعدم إثارة تلك المسائل الخلافيَّة مرة أخرى، وفي الوقت الَّذِي أكدت المصادر السنيَّة على صحة تلك الوثيقة، نفت صحتها معظم المصادر الشيعيَّة، على المستوى السنيِّ أيضًا دخل إلى الثقافة الطائفيَّة نتاج بعض المواقف السياسيَّة التي وقفتها عناصر منسوبة إلى الجانب الشيعيِّ، مثل تسليم مفاتيح بغداد (سنة ٦٥٦ هـ) من ابن العلقمي إلى هولاكو، وكان العلقمي الوزير الأول لآخر خلفاء بني العباس، وكذلك موقف النصيريَّة في الحروب الصليبية الَّذِي حمل ابن تيمية ومدرسته وكثيرًا من العلماء آنذاك

إلى تكفير الشيعة، وكتابة الردود العنيفة عليهم، ونبزهم بمختلف الألقاب، كما أن الصراع القديم بين الإمام علي ومعاوية–وما انبثق عنه من غلوٍّ في مجال التشيُّع وفي مجال الناصبيين– قد أدَّى إلى تكوين حواجز نفسيَّة ومشاعر سلبيَّة تجاه الشيعة والتشيُّع دون تمييز بين تشيُّع علويٍّ يمكن أن يكون مقبولا أو مشتركًا في كثير من دعائمه، وبين تشيُّع صفويٍّ قائم على أفكار الغلاة، من الصعب قبوله، وبطبيعة الحال شكَّل الصراع الصفويُّ والعثمانيُّ ذلك المزيج الخلافيَّ، وفي الوقت الَّذِي كرَّس الصفويُّون فيه ثقافة الغلوِّ الشيعيِّ حفلت دراسات سنيَّة كثيرة بكثير من عناصر الفرقة.

وفي عصرنا هذا صار الأمر في غاية الخطورة، حيث إنَّ الأمَّة المسلمة–بكل طوائفها ومذاهبها القديمة والمحدثة–قد صارت هدفًا لعدوٍّ لا يرحم، عدوٍّ قد تمكن من دراسة التراث الإسلاميِّ كلِّه، السنيِّ والشيعيِّ والزيديِّ والإماميِّ والإباضيِّ وسواه، وهو يرى في بقاء هذه الأمَّة أمَّة خطرًا دائمًا، والذي يأخذ فكرة عن الاستشراق اليهوديِّ المعاصر–وهو أخطر أنواع الاستشراق التي تأسست–يستطيع إدراك أن الأمَّة كلها تواجه خطر استئصال سوف لن يستثني أحدًا ، فجميع المناطق السنيِّة الآن يجري فيها العمل على قدم وساق من أجل نشر التشيُّع الصفويِّ، لا حبًّا فيه، ولكن لإشغال أهل البلاد ببعضهم، والتهيئة لفتن وحروب أهليَّة، وكذلك إيران والمناطق الشيعيَّة يعمل ذو المصلحة من أعدائها على إيجاد وخلق معارضة سنيَّة، لتنشغل كلُّ فصائل الأمَّة ببعضها عما يُدبَّر لها، ولتتحقق مخططات التفتيت والتمزيق لبقايا هذه الأمَّة بكل أشلائها لكي يُحال بينها وبين الوعي بالأمَّة، والانتماء إليها، والتفكير بوحدتها، فكيف يمكن تلافي هذا الخطر الدائم ؟ وهل من سبيل إلى إعادة الوعي بمفهوم الأمَّة المسلمة الواحدة من جديد، أو أن تلك مرحلة قد فات أوانها؟